

موقع الفكرة الإسلامية من الفكرة الدينية في (شروط النهضة) لمالك بن نبي

The location of the Islamic idea from the religious idea in the (conditions of the renaissance) of Malik ibn Nabi

محمد طيبي

جامعة الجلفة (الجزائر)، tajtaibi17@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/10/12

تاريخ القبول: 2024/09/08

تاريخ الاستلام: 2024/07/29

ملخص:

ورقنا البحثية ستكون إجابة عن مصداقية التشخيص الذي قدمه مالك بن نبي لوضع الأمة وأزمته الحضارية في كتابه (شروط النهضة)، وعن مصداقية النتائج التي انتهى إليها ذلك التشخيص، ثم إن أسئلتنا تتركز حول (الإيمان) باعتبار الفكرة الدينية منطلق الإيمان، وبناءً على قناعة بأنه ليست كل فكرة دينية تفعل فعل الفكرة الإسلامية، فنحن نؤمن بانفراد الفكرة الإسلامية حضارياً، وسنتناول الفكرة الدينية عموماً عند مالك بن نبي بتناول التعريف، والمصطلح، والإشكالات، الوظيفة، ثم موقع وتجليات الفكرة الإسلامية خصوصاً عند مالك بن نبي، ثم أثر الفكرة الإسلامية في بناء الحضارة الإسلامية بإثبات خصائصها، واستدراك ما كان في تناول ابن نبي من نقائص

الكلمات المفتاحية: النهضة، الإيمان، الفكرة الدينية، الفكرة الإسلامية

Abstract:

Our research paper will be an answer to the credibility of the diagnosis presented by Malek Bennabi on the condition of the Muslim nation and its civilizational crisis in his book "Conditions for the Renaissance". We will also examine the credibility of the conclusions reached by that diagnosis. Our questions focus on the (belief) in considering the religious idea as the starting point of faith, and based on the conviction that not every religious idea embodies the Islamic idea. We believe in the uniqueness of the Islamic idea civilizationaly, and we will address the religious idea in general according to Malik Bennabi by discussing the definition, terminology, issues, function, as well as the position and manifestations of the Islamic idea specifically according to Malik Bennabi. Then we will examine the impact of the Islamic idea on the building of Islamic civilization, proving its characteristics and correcting any shortcomings that Ibn Nabi may have addressed.

Keywords: Renaissance, faith, religious idea, Islamic idea

يجب قِلّة هم الذين سيريطون بين صدور الطبعة الأولى من كتاب (شروط النهضة) عام 1948م وبين نجاح (فكرة دينية صهيونية) في إنشاء وطن قومي لليهود بعد آلاف السنين من الشتات، وهو الحدث الذي كان يعني لأمتنا شاهدا ضخما على دخولها أكثر الأنفاق التاريخية والحضارية عتمةً وحيرة، وكانت صدفَةً غريبةً لمن يؤمنون بالصدفة، أما من لا يؤمن بها فإنه سيكون قد استنبط من الأقدار إشارات وبشارات يحملها ذلك التوافق بين صدور كتاب مهم ونشوء كيان محتل في عمق العالم الإسلامي، وأولى البشارات والإشارات أنه في عتمة النفق المدهمة كان هناك من يرى خيط النور فكان رائدا لأمته يدلها على المنفذ، و(الرائد لا يكذب أهله).

وقد كان إلحاح قراء الطبعة الأولى من الكتاب على المحروم مالك بن نبي بأن يستفيض في تحليل الوظيفة التفسيرية التاريخية للفكرة الدينية حافزا كبيرا أثار همّة المؤلف ليستدرك ويقف في فصل معتبر من الطبعة الثانية عند الفكرة الدينية مضيفا إلى تحليله التاريخي لها تحليلا نفسيا عميقا، ومع ظن المؤلف بأن قراءه كشفوا عن تحمس منهم لمشاكل الحضارة إلا أنه تبادر إلى الذهن أن حدث (النكبة) كان - أيضا - من وراء تلك الرغبة من القراء الذين عاشوا النكبة حدثا مفصليا مُروّعا في التاريخ، ومن يومها صدر الكتاب بطبعات وترجمات ولكنّ الأمة لم تستفد منه حتى الآن أي بارقة أمل حقيقية في كسب الصراع لصالح أصحاب الأرض، وها نحن نحتمي بالذكرى الخامسة والسبعين لصدور كتاب (شروط النهضة) بينما الكيان المحتل يحتفل ومعه واشنطن بمرور خمسة وسبعين عاما على إنشائه، وبإعلان (القدس) عاصمة له، وقصارى ما نقوم به اليوم أن نذكر أن كاتبها مسلما قد كتب قبل خمسة وسبعين عاما (شروط النهضة) لأمة لم تستوف (شروط النهضة) وفكرتها الدافعة بعد.

ومع استطراد ابن نبي في تحليل الفكرة الدينية إلا أنه لا يمنحنا إلا تحليلا عاما للفكرة الدينية وأثرها في الدورة الحضارية عموما دون الحديث عن (الفكرة الإسلامية) التي تهمنا نحن بالخصوص من حيث ارتباطها بالحضارة الإسلامية وبالأفق الإسلامي المنشود، ورأيناه يسترسل في لغة التحليل النفسي لأثر الفكرة الإسلامية ولكن تحت غطاء الفكرة الدينية العامة، الأمر الذي جعلنا نطرح تساؤلا مشروعا عن رؤية ابن نبي للفكرة الإسلامية وأين يصنّفها ضمن الأفكار الدينية، وماذا عن خصوصيتها وأثار ذلك الخصوص، وما الذي ينبغي استدراكه في تحليله النفسي للفكرة الدينية؟

إن هذا التساؤل فرضها ما لمسنه من ذلك التداخل بين الفكرتين الإسلامية والدينية عند ابن نبي، وسنجيب عنها بفرضية مؤقتة نقول بأن ابن نبي يتعامل في (شروط النهضة) - خصوصا - مع الفكرة الدينية عموما ولا يرى خصوصية للفكرة الإسلامية، وأنه إنما يأخذها مجرد نموذج لأثر الفكرة الدينية في بناء الحضارة وفي تفسيرها التاريخي والنفسي، وإن صحت هذه الفرضية فإننا أمام معضلة كبيرة، وذلك أن دمج الفكرة الإسلامية في الفكرة الدينية عموما دون مراعاة لطبيعة الفكرة الإسلامية وخصوصياتها يجعل الفكرة الإسلامية سواسية مع أي فكرة دينية أخرى، وماذا بقي من خصوصية الفكرة الإسلامية الثابتة بتميز الإسلام عن كل دين آخر إن جعلناها لا تختلف عن أي فكرة دينية في التاريخ؟ إنها نتيجة (يفترض) أن يأبأها ابن نبي نفسه باعتباره مسلما وعارفا بالحقائق الكبرى للفكرة الإسلامية، وتأبأها الحقيقة التاريخية وطبيعة الحضارة الإسلامية وفكرتها، وقد يشفع لمالك بن نبي أنه يتناول الحضارة مشتركا بشريا من منظور اجتماعي كما صرح في مقدمة الكتاب، ولكن إن صح افتراض عدم رؤيته خصوصية وتفرد الفكرة الإسلامية في بناء الحضارة فإنه يخسرها حظها في التحليل الحضاري، ويجعلنا مجبرين على فكّ التداخل بين الفكرتين الدينية والإسلامية وتخليص الفكرة الإسلامية من أثره، والسموّ بها إلى مكانتها الحقيقية في دورة الحضارة، والبرهنة على أن الفكرة الإسلامية ليست كأي فكرة دينية.

إن إجابات ورقتنا البحثية ستكون إجابة عن مصداقية التشخيص الذي قدمه مالك بن نبي لوضع الأمة وأزمته الحضارية، وعن مصداقية النتائج التي انتهى إليها ذلك التشخيص، والمصداقية العلمية للمنهج الذي استعمله في ذلك كله، ثم إن أسئلتنا تتركز حول (الإيمان) باعتبار الفكرة الدينية منطلق الإيمان، وبناءً على قناعة بانفراد الفكرة الإسلامية حضارياً، والإحساس بوجود قصور وثغرات - كأبي جهاد بشري- في تحليل ابن نبي النفسي لها، وسنعمد في تجلية ذلك تقاطعاتٍ منهجيةً وصفية وتاريخية واستنباطية تتناسب مع الظاهرة الحضارية الإسلامية وفق قانونها الحضاري ووفق أبعادها التاريخية والفكرية والواقعية من خلال محاور ثلاثة:

- الفكرة الدينية عند مالك بن نبي: التعريف، المصطلح، الإشكالات، الوظيفة.

- موقع وتجليات الفكرة الإسلامية عند مالك بن نبي.

- الفكرة الإسلامية وبناء الحضارة الإسلامية: إثبات الخصائص واستدراك النقائص

إن الإجابة عن هذه الأسئلة والمحاور تهدف إلى أهداف وغايات من أبرزها:

- بيان الإضافة المهمة التي أضافها مالك بن نبي إلى تفسير الحضارة من خلال الفكرة الدينية في كتابه

(شروط النهضة).

- استخلاص ما اكتشفه ابن نبي من وظيفة الفكرة الإسلامية في البناء الحضاري.

- إنصاف الفكرة الإسلامية وتخليصها من شوائب وقصور الأفكار الدينية الأخرى.

- بيان أن الفكرة الإسلامية لها خصائص الشرع والتنزيل من الخلود والإعجاز والشمول والصلاحية لكل

الزمان والمكان، وأنها تختلف بذلك عن أي فكرة دينية أخرى.

- الإجابة عن الأسئلة التالية: (ماذا طرح مالك بن نبي في هذا السياق؟ كيف تفاعلت الأمة مع أفكار مالك

بن نبي؟ ماذا بقي لنا اليوم مما طرحه مالك بن نبي؟)

هذا أهم ما يمكن إيجازه عن الورقة البحثية التي دفعني إلى قراءة أخرى لـ(شروط النهضة)، وأثارت

إشكالات عدة في موضوع الفكرة الدينية.

1- الفكرة الدينية عند مالك بن نبي: التعريف، الوظيفة، الإشكالات

1- 1 الفكرة الدينية: التعريف والولادة

هي مركبٌ تردّد كثيراً في كتاب (شروط النهضة) مع كونه عنواناً لفصل أضيف إلى الكتاب فكان الحافز الذي أثار إشكالية هذا البحث، وقد كنا مدفوعين تحت تأثير قراءة ذلك الفصل إلى التقصي عن المقصود بمركب (الفكرة الدينية) وحيثيات تناول ابن نبي له، مع الاعتراف بأن قراءة واحدة للفصل لم تكن كافية لرؤية كل الصورة التي أراد مالك بن نبي رسمها عن (الفكرة الدينية) ودورها الحضاري، فكنا بحاجة إلى قراءات أكثر تبصراً وأناةً، ورغم أن المؤلف انتقل في تحليل المركب من حجم سطور في طبعة سابقة إلى حجم فصل في طبعة لاحقة فإننا تمنينا لو أفرد ذلك المركب بكتاب كامل دون الاختصار على كونه جزءاً من كتاب، لعل التوسع يزيح كثيراً من الغبش، وبقي الضبابية التي بقينا نلمحها في ثنايا التناول الجزئي، وهذا مطلب معقول، فإذا كانت شروط النهضة لا تلتئم ولا ينفخ فيها الروح إلا مركبُ (الفكرة الدينية) - كما يرى المؤلف- فإن ذلك المركب كان يحتاج منه تفصيلاً وتأصيلاً أكبر بحجم دور ذلك المركب في التأسيس الحضاري.

إننا - لضيق نطاق الورقة البحثية - سنتناول مركب (الفكرة الدينية) دون تفكيكٍ تعريفي لغوي أو اصطلاحي إلا ما نقتبسه من ظلالٍ تعريفية للفكرة عموماً ثم للفكرة الدينية عند ابن نبي، ففي شأن تعريف الفكرة عموماً يرى بأن "الافكار - بصفتها روح الأعمال التي تعبر عنها أو تسير بوحها - إنما تتولد من الصور المحسوسة [المحسوسة] الموجودة في الإطار الاجتماعي والتي تنعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صوراً معنوية يصدر عنها تفكيره"¹، وهذا رصدٌ لعملية (ولادة الفكرة)، وأنها تتولد من واقع إطار الاجتماعي ثم تخضع

للتجريد العقلي، والتجريد هو كون "العقل يدرك الصور بأن يأخذها أخذًا مجردًا عن المادة من كل وجه"²، وتصدر الفكرة عن ذلك التجريد كائنًا معنويًا روحيا، ولكنها لا تبقى مجرد معنى، بل تعاود الكثرة متجسدة من خلال أعمال محسوسة تُفهم بأنها موجّهة في الواقع بتأثير فكرة ما، وبذلك تصبح (الفكرة) برزخا بين عالمين حسيين، الأول صور حسية موجودة في الإطار الاجتماعي استلهم منها العقل الفكرة مجردة، والثاني هو تجسد الفكرة الوليدة مرة أخرى في أرض الواقع أعمالا وصورا محسوسة نتيجة، وبينهما تكون الفكرة مُستَمِدَّة ومُمدَّة في آنٍ واحد، تستمد من واقع سابق لتمد واقعا لاحقا.

هذا عن ولادة الفكرة، أما عن (ولادة التفكير) فإن عالم الأفكار هو مرحلة أخيرة أو (عالم ثالث) في عوالم تنشئة الطفل بدءًا بـ (عالم الأشياء) فـ (عالم الأشخاص) وصولاً إلى (عالم الأفكار) الذي يدخله الطفل بين سن السابعة والثامنة، ويكون ذلك - تحديداً - "من اللحظة التي يتمكن فيها من تكوين روابط شخصية مع مفاهيم تجريدية"³، وإذا كانت الأفكار - كما قال ابن نبي - صوراً معنوية تنشأ عن صور حسية فإن الفكرة الدينية لدى الفرد لا بد أن تنشأ من ممارسة محسوسة للتدين في الإطار الاجتماعي مع انسياق لميوله الفطرية في التدين، أو مع التدين الوراثي، أو مع شهية البحث الذاتي عن قناعة دينية أخرى، أو مع ومضة جديدة لـ (اكتشاف ديني) جديد تتوالد مفاهيم أخرى في الإطار الديني ذاته، وتكون بذلك (الفكرة الدينية) قد أخذت لها مكاناً معتبراً في عالم الأفكار بترتيب العوالم الذي رآه ابن نبي، وما بين ولادة التفكير الديني وولادة الفكرة الدينية مجال لتفاعل مستمر يتباين فيه الأفراد، ويتأرجح فيه الإبداع نزولاً وصعوداً، فقد تولد فكرة دينية عاصفة تختلف عن الأفكار العادية، وهي مقصود مالك بن نبي في شروط النهضة، إنها فكرة عملاقة دافعة، لا تنشئ عملاً واقعياً عادياً لفرد، بل تنشئ حضارة لأمة كاملة.

2-1 الفكرة الدينية: الوظيفة وقانون الدورة الحضارية

إن ذلك الحيز الذي تأخذه الأفكار الدينية قد لا يكون حيزاً عادياً، بل يكون له التصدر والقيادة الفاعلة، ومن هنا اشتغل مالك بن نبي على أثر الفكرة الدينية في القيادة الروحية بدءاً من إطلاقها شرارة بعث حضارة ما، ولقد تعددت أوصافها عند مالك بن نبي، فمن خلال متونه يصفها بأنها هي (نقطة الانطلاق) والبداية في البناء الحضاري، و"أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا"⁴، والفكرة الدينية - عنده - هي (الفكرة الدافعة)، و(الجوهرية) التي تدفع بالحضارة في التاريخ، وهي (باعثة الحركة والنشاط) في مجتمع ما بعد أن كان خامداً، وهي (إرادة بكر) تستلهم منها الحضارة، وهي (توتر داخلي) مفاجئ لإنسان ما قبل الحضارة يقوده إلى دخول جو الحضارة الجديد، وهي (مُرَوِّضة الغرائز) بهيمنة روحية تتعالى على طبيعة (الإنسان الفطري) أو (إنسان ما قبل الحضارة) الذي كان جيّاش الغرائز، متخماً بالنزوات دون جماح، وهي (مركب الحضارة) "فكما يدل عليه التحليل التاريخي... نجد أن هذا (المركب) موجود فعلاً وهو الفكرة الدينية التي رافقت دائماً تركيب الحضارة..⁵، وهي (محدّدة) اتجاه المجتمع الذي لا يمكنه مجابهة الصعوبات التي يواجهها بها التاريخ كمجتمع ما لم يكن على بصيرة جلية من هدف وجوده"⁶، وهي واهبة المعنى للحياة حينما "تُخلق في قلوب المجتمع بحكم غائية معينة، وذلك بمنحها الوعي بهدف معين تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى"⁷.

ومع أن ابن نبي اعتمد في تفسير الحضارة على فلاسفة غربيين - إلا إشارة عابرة لابن خلدون وإتاهما مبطناً له بالقصور في التفسير الحضاري - فإن تناوله الفكرة الدينية لم يخلُ من إضافات من أهمها تعديل قانون (الدورة الحضارية) مع اتجاه هِمَّتِهِ إلى البرهنة على (قانون) من السنن الإلهية يقول بالدور المحوري للفكرة الدينية في بناء الحضارة التي تكون دوماً بين حدّي (ميلاد) و(أفول) أضاف ابن نبي إليهما إثباته مرحلة وسيطة وهي مرحلة (الأوج)، وقد بين بأنه يعني بالأوج "ازدهار العلوم والفنون"⁸، ومن الإضافات أن مرحلة الأوج عنوانها (العقل)، بينما عنوان مرحلة الميلاد هو (الروح)، وعنوان مرحلة الأفول هو (الغريزة)، وقبل مرحلة الروح الأولى تكون الغريزة أيضاً، ومن كبجها تنطلق الروح، فكأن الغريزة تكتنف الحضارة بداية ونهاية، وهكذا يرى ابن نبي بأن

هناك دورة للحضارة، متأثرا بفيلسوف التاريخ الألماني (كيسرلنج)، ويضيف لمستته الخاصة ليصل إلى أن الإنسان أنواع باختلاف أطوار الدورة الحضارية، فهناك إنسان ما قبل الحضارة: (الفطري)، وإنسان الحضارة، ثم الإنسان المتفسخ حضاريا إلى حد العجز تماما عن إنجاز حضارة أخرى ما لم يتغير هو نفسه، بخلاف الإنسان السابق للحضارة والذي له الإمكانية المتاحة للدخول في الحضارة كما دخلها الإنسان العربي الجاهلي مع النبوة.

ويبدو ابن نبي مجيبا عن سؤال: ما الطريقة المثلى لإطالة عمر حضارة ما؟ فيرى بأن ذلك لا يكون إلا بإطالة عمر مرحلة (الأوج)، وذلك مرتبط بـ(غائية معينة) أو الوعي بـ(هدف كبير) تكون الفكرة الدينية من ورائه، "وهي حين تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل ومن طبقة إلى أخرى فإنها تكون قد مكنت لبقاء المجتمع"⁹، فأضاف إلى وظيفة الفكرة الدينية مساهمتها في حل مشاكل تتعلق باستمرار الحضارة، ومع طرحه كل هذا كان ابن نبي قد وفي بوعده بتجاوز المعطيات التاريخية إلى التحليل النفسي الذي سنقف عنده لاحقا.

3-1 الفكرة الدينية في (شروط النهضة): أهم الإشكالات

طرح ابن نبي في أول الفصل وآخره أسئلة مباشرة أو غير مباشرة ليقول بأن ما كتبه في ذلك الفصل ما هو إلا إجابة عن تلك الأسئلة والإشكالات، وأسئلته المباشرة أمكننا حصرها في خمسة هي هذه:

1- كيف تشرط [تكيّف] هذه الفكرة سلوك الفرد وكيف تنظم غرائزه تنظيما عضويا في علاقتها الوظيفية ببناء إحدى الحضارات؟¹⁰.

2- "كيف يتاح (للفكرة الدينية) أن تبني الإنسان حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة؟"¹¹.

3- "كيف يتاح لهذه الفكرة ذاتها أن تمدنا بتفسير عقلي لدور إحدى الديانات في توجيه التاريخ؟"¹².

4- "ما هي الحدود التي تقف عندها الفكرة الدينية في تفسيرها للوقائع التاريخية؟"¹³.

5- "كيف تشرط [تكيّف] الفكرة الدينية سلوك الإنسان حتى تجعله قابلا لإنجاز رسالة (محضرة)"¹⁴.

ويبدو أن هذه الأسئلة الخمسة تدور كلها في فلك سؤال: (ما أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة؟)، سؤال مستنبط من عنوان الفصل، ومعه نحتاج لسؤالين آخرين: ما هي الفكرة الدينية؟ وما هي الحضارة؟ وما الحضارة - وفق المرحوم محمد محمد حسين إلا - "قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور وتقلب الأزمان"¹⁵، ويجدر بنا - وقد كنا أجبنا عن سؤال: (ما هي الفكرة الدينية؟) من خلال متون ابن نبي - أن نستعين بمتنه أيضا في تعريف الحضارة، فهي: (.. جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره"¹⁶، وبهذا تكتمل الأسئلة الخمسة عن الفكرة الدينية وضوح تام. إن أسئلة ابن نبي متكاملة، فالسؤال الأول عن الكيفية التي تكيّف بها الفكرة الدينية سلوك الأفراد وتنظم غرائزهم، تلك الغرائز التي من شرطها أن تتكيف ولا تبقى على فطريتها لتكون لها علاقة وظيفية في بناء حضارة ما، أما السؤال الثاني فهو أشبه بسابقه ولكنه يجعل التكييف والتنظيم عملية بنائية للإنسان، فكأنهما عملية هدم لإنسان ما قبل الحضارة، وبناء إنسان جديد يتلاءم مع التحضر، أما السؤال الثالث فهو عن المدى التفسيري لدور الفكرة الدينية ودور الدين الذي تنتمي إليه في توجيه أحداث التاريخ، في حين يتكفل السؤال الرابع بالبحث عن حدود تقف عندها الفكرة الدينية في التفسير، بينما بدا السؤال الخامس كالأول، وورد آخر الفصل ليؤكد على ما بين السؤالين من التحليل، ويضيف أمرا مهما وهو السؤال عن الطريقة التي تُنشئ بها الفكرة الدينية (القابلية للتحضر)، أو (القابلية للتغيير)، وهنا تحتشد أسئلة شتى عن الفكرة الدينية و(القابلية للتحضر)، وبعد هذا يهمننا جواب ابن نبي عن تلك الأسئلة الخمسة، فقد كان جوابا مجملا من خلال التحليل النفسي والمعطيات التاريخية، ومن خلال تفسير طبيعي - أيضا - فسّر لنا كيف أن الفرد في تموضعه عبر مراحل الحضارة يشبه جُزء الماء قبل أن يدخل خزان الماء ليولد الكهرباء وكيف يكون بعد الخزان فاقدا لوظيفته¹⁷، وقد كان من غرضنا أن نتكلم أكثر عن الفكرة الدينية عموما عند مالك بن نبي، ولكن مساحة البحث لا تمنحنا

غير هذه النبذة لنجعل من الفكرة الدينية معبرا مختصرا - مع أهميته- إلى (الفكرة الإسلامية) التي سنركز عليها في بقية البحث.

2 - موقع وتجليات الفكرة الإسلامية عند مالك بن نبي

1 - 2 الفكرة الإسلامية عند ابن نبي: التعريف المتأرجح

إن مصطلح (الفكرة الإسلامية) لم يرد في فصل (أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة) من كتاب (شروط النهضة) إلا مرة أو مرتين، بينما ورد ذكر (الفكرة الدينية) بما يقارب العشرين مرة، وإن كانت الأفكار - وفق ابن نبي - تنشأ من الواقع إلا أن (الفكرة الدينية) الاستثنائية والدافعة للحضارة قد لا تأتي من الواقع مطلقا، بل من عالم آخر كما هو شأن (الفكرة الإسلامية)، فمالك بن نبي - باعتباره مسلما - لا يراها فكرة أرضية مطلقا، لا من الواقع القرشي الجاهلي القريب ولا من واقع بعيد عنه، بل من أعلى، من عالم الغيب، و(الغيبية) أبرز ما يميز الفكرة الإسلامية والدينية عموما، وذلك "أن الفكرة الدينية لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمتها الغيبية.. أي بقدر ما تكون معبرة عن نظرنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية.."¹⁸.

تلك أولى سمات الفكرة الإسلامية أنها سماوية، وهي منفصلة عن السبب البشري لكونها فكرة مفاجئة بكل ما تحمله المفاجأة من ذهول، وهنا نحتاج تكملة لرأي ابن نبي عن (الفكرة الإسلامية) من متونه الأخرى، فنجد في (مشكلة الأفكار) يقول عن عنصر (المفاجأة): "وفجأة أضاءت فكرة في غار، غار حراء، حيث منعزل يقوم فيه متأملا، وحمل وميضها رسالة بدأت بكلمة (اقرأ)، مزقت هذه الكلمة ظلمات الجاهلية"¹⁹.

إن مصدر الفكرة الغيبية وعنصر المفاجأة يقولان بأن (الشخص: النبي) لا علاقة له بإنشاء الفكرة مطلقا، وهذا مهم جدا لاستيعاب دافعية الفكرة وتفردتها، وإن كان ابن نبي اعتمد (هيجل) في الإثبات العقلي للنبوة²⁰، فهو يتفق مع علماء العقيدة في كون النبوة هبة غير مكتسبة، وليست فكرة بمفهوم الناتج العقلي، بل باعتبار مآلها وتفاعلها في عقل النبي، فقد نشأت في فراغين: ثقافي "وجدته الفكرة الإسلامية في النفس العربية العذراء التي لم تنشأ فيها ثقافة ولا ديانة سابقة"²¹، وفراغ ذهني من كل ما يتعلق بالغيب والوحي يمتلئ - فجأة - من كلمة واحدة: (اقرأ)، فالنبي "لم يكن لديه سوى ذلك المتاع العادي من الأفكار الشائعة في وسطه البدائي [فيه نظر لإلغائه معنى الاصطفاء، ولكون أفكار النبي كانت مخالفة لأفكار الوثنيين قطعاً]، ثم تأتي الفكرة الموحى بها فتقلب هذه المعرفة الضئيلة.."²².

وفي متون أخرى وفي تخطيط قانون الحضارة يركز على لحظة الوحي الأولى ويراه انطلاقة الحضارة الإسلامية، بينما في ذلك الفصل من شروط النهضة لا كلام عن تلك اللحظة، ولا يعطينا إلا (خبرا) عنها دون تفصيل عن (المبتدأ)، وربما تكلم عن (المبتدأ) في متون أخرى، وليس (المبتدأ) إلا النبوة والوحي وذلك (الانتقاء السماوي) لشخص (النبي)، وفي متن آخر ينزل بالفكرة الإسلامية إلى أن تكون مجرد (فكرة أخلاقية)، فيقول - بوضوح -: "حينما أعطاه القرآن اندفاعه الأولي اتخذ الفكر الإسلامي مداره أساسا حول فكرة واحدة تكون حينها (حب الخير)، وحينما آخر (كره الشر)..²³، ووصفه الفكرة هذه بأنها (واحدة) تقزيم للفكرة الإسلامية لم يكن منتظرا منه، ف(حب الخير) مشترك إنساني أضافت إليه الفكرة الإسلامية (غائية أخروية) فجعلته عبادة بعد أن كان عادة، ولم تكن حضارة الإسلام الكبرى لتنتقل من مبدأ أخلاقي فحسب، وكأن ابن نبي يبدو متأثرا بعبارة (المبدأ الأخلاقي) لمرجعياته التفسيرية (كيسرلنج).

2 - 2 الفكرة الإسلامية وسندها: (عالم الأشخاص المثالي)

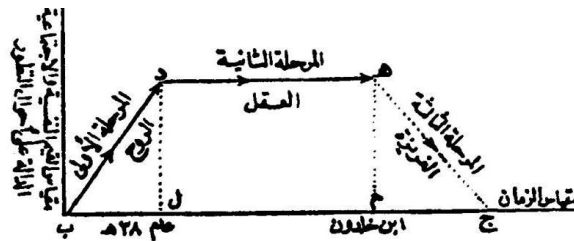
لا يمكن تناول دور الفكرة دون عالمها المحسوس: الأشخاص، وذلك لـ "أهمية" الإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس للفكرة²⁴، وقد ألح ابن نبي على دراسة العلاقة بين الفكرة والفرد عبر التحليل النفسي، ورأى أن العلاقة بين الفكرة والفرد هي ما ألجأه إلى ضرورة التحليل النفسي، لأنه لا معنى لـ (التحليل النفسي) إن لم يكن

هناك (فردٌ) يتفاعل مع الفكرة، وتُدرس آثار الفكرة فيه وعليه، كما أن الفرد هو (الشاهد) الأوحده على تأثير الفكرة الدينية عبر مراحل قانون الحضارة.

وقد كان النموذج الأصلي للفرد: (الفطرة) هو النموذج الذي دفع ابن نبي إلى التركيز على (البداوة) وصفاً لأول حَمَلَة الفكرة الإسلامية، وهو تركيز لا يخفى على قارئ متمعن، حتى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يتكلم عنه بوصفه ذا "ضمير بدوي"²⁵، والبداوة عنده تتراوح بين (الفطرية) و(الأمية) ببساطتها، فالفرد هو "الإنسان الطبيعي أو (الفطري) غير أن الفكرة الدينية ستتولى إخضاع غرائزه"²⁶، ونجده في معنى (البساطة) يقول: "لدى ميلاد المجتمع الإسلامي كانت ثقافة هذا المجتمع جد متجانسة متحدة الطابع عند الخليفة والبدوي البسيط.."²⁷، وإن عدنا إلى (شروط النهضة) نجده يعتبر كل من تلقوا كلمة الوحي الأولى (بدؤا) كانوا يستعدون للدخول في الحضارة²⁸، وإذ يرى ابن نبي البداوة سابقة للحضارة فإنه من الضروري القول بأن البداوة كانت تحمل في طياتها قيما ثقافية وأخلاقية وإنسانية لا يمكن إنكارها، ويرى مؤرخٌ معتبر أن ذلك البدوي كان أكثر تحضرا لتوفر حاجاته البسيطة، ولتوفر كرامته وعدم خضوعه لسلطة تذله بخلاف رعايا فارس والروم الذين كانوا بلا كرامة²⁹. ثم إنه لم يتكلم عن شخص حامل الفكرة الأول في (تحليله النفسي)، وكان ذلك أولى لكون شخص (النبي) هو من سيتشكل منه ومن حوله عالم الأشخاص مجموعةً معتبرة مهينة فطريا لقبول (الفكرة الدينية) لكونها من بيئة (الإنسان السامي) الذي "يبدو مهينا للفكرة الغيبية، بحيث لم تدع الألوهية في ذاته غير قليل من المشاغل الأرضية..³⁰، خلافا للأوروبي الغارق في (الشيئية) و(التقنية)، وكان حَمَلَة الفكرة الأوائل (النموذج الأصلي) تحدوهم الفكرة الإسلامية ليصيروا القدوة للأجيال اللاحقة، "وقد جسد هذا النموذج الفكرة الإسلامية، إذا أضحى النموذج المحتذى"³¹، وعالم الأشخاص كان مثاليا لفطريته التي جعلته مهينا لاستقبال الفكرة، ولقابليته لتلك العملية (المكيفة) للغرائز، ول(الصلة) الوثقى بين أفرادها، ف"الشرط الأول العام لتحقيق مشروع ثقافة هو إذن الصلة بين الأشخاص أولا"³².

3 - 2 قانون الحضارة والتحليل النفسي للفكرة الإسلامية

تميز فصل (أثر الفكرة الدينية في التكوين الحضاري) بأمرين يتعلقان بالفكرة الإسلامية، أولهما تخطيط (قانون الحضارة) بحثيات وبيانات إسلامية، وثانيهما ذلك التحليل النفسي لبداية سيرورة ذلك القانون وفق وقائع تاريخية إسلامية، ولنلق نظرة على ذلك التخطيط³³.



تبدأ مرحلة الميلاد أو (الروح) من البعثة، من (ليلة الغار) حتى عام (38هـ)، [يقصد معركة صفين التي كانت في ذي الحجة أواخر عام (36هـ) وبداية العام الموالي وليس عام (38هـ)]، ويؤكد على مفصلية ذلك الحدث (معركة صفين) فيقول بأنها "حولت مجرى التاريخ الإسلامي إذ أخرجت الحضارة الإسلامية إلى طور القيصرية الذي يسوده عامل العقل وتزينه الأبهة والعظمة"³⁴، والمرحلة الثانية مرحلة الأوج أو (مرحلة العقل) تبدأ من معركة صفين إلى زمن ابن خلدون، والثالثة مرحلة الأفول أو (مرحلة الغريزة) من زمن ابن خلدون زمن ما بعد الموحدين إلى اليوم، وأردنا بذكر هذا التأكيد على (المرجعية التاريخية الإسلامية) أو كون (الفكرة الإسلامية) مرجعية لهذا القانون، وأن ابن نبي لم يلجأ إلى أحداث تاريخية غربية لجعلها عناوين في صورته التخطيطية لقانون دورة الحضارة.

ونلاحظ أن ذلك المخطط يبدأ بتحديد دقيق، فلحظة الميلاد (ليلة الغار) دقيقة، ولحظة بداية الأوج أو منعطف العقل - وهي معركة صفين - دقيقة أيضا، وحين يصل إلى بداية مرحلة الأفول أو زمن ما بعد الموحدين يربطه بابن خلدون في المخطط، وابن خلدون كان بعد هزيمة الموحدين بما يقارب القرنين، ومع ذلك فزمنه يمثل بداية الأفول، ومرة يربط بزوال الموحدين عام (1269م)، ومرة بسقوط غرناطة (1492م)، وهذا اضطراب مقلق، وإذا كانت لحظة الغار متفقا عليها فإن محطة معركة (صفين) تبقى اجتهدا من ابن نبي، فإن كان يقصد بها بداية التغير فالتغير بدأ قبل ذلك بالثورة على عثمان، وإن كان يراها بداية السيطرة الأموية (التوريث) فقد بقيت بعدها أربع سنوات أو أكثر لتنتهي الخلافة الراشدة بعام الجماعة من ربيع 1 عام 41هـ، وفكرة التوريث لم تتأكد في بداية خلافة معاوية بل في نهايتها عام (60هـ).

ويؤرخ ابن نبي بمعركة صفين على أنها منعطف العقل، فيوقعنا في حيرة، فمنعطف العقل يعني نهاية مرحلة الروح، وبداية زوال سيطرة الروح تعني عنده في موضع آخر بداية الأفول لا (الأوج)، ها هو يقول عن البناء الاجتماعي أنه "لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح والروح وحده هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيث فقد الروح سقطت الحضارة"³⁵، فكيف يبقى مخطوطه ذو الثلاث مراحل صالحا والانحدار - وفق كلامه - بدأ مع صفين، والروح بدأ مفعولها يضمّر؟ ثم كون ما بعد (صفين) مرحلة العقل يجعل معنى الرشد في الخلافة الراشدة قاصرا على رشد الروح لا العقل، ويجعل أربع سنوات منها فاقدةً لسيطرة الروح، بل يرى الصراع بين الأمة (الصحابية) أنثى صراع روح جاهلية مع المبدأ القرآني³⁶، ليعلن في نفس الموضع أنه مدينٌ للأمويين بانطلاق الحضارة، وأن منعطف العقل ضرورة لتلبية مقاييس حضارية وهو "يتطابق مع استيلاء الأمويين على الحكم" مع أنه يراه أول انفصال للعالم الإسلامي، وأن الحضارة الناشئة عنه ليست سوى (صورة مشوهة عن البناء الأصلي الذي شاده القرآن على أساس من التوازن بين العقل والروح"³⁷، ويقصد بالبناء الأصلي مرحلة النبوة والراشدين، وها هو يراها توازنا بين العقل والروح، في حين يرى ما بعد صفين منعطف العقل (والأوج)، وقد نقلنا اعتقاده بأن ما سماه - حرفيا - (استيلاء الأمويين على الحكم) أخرج الحضارة "إلى طور القيصرية الذي يسوده عامل العقل وتزينة الأبهة والعظمة"، وهل سيجد الأمويون - عبر التاريخ - شرعنة أو تبريرا كالذي أكد عليه ابن نبي وجعله ضرورة حضارية!!؟

ونشير إلى أن ابن نبي اعتمد شخصية تاريخية مهمة لجعلها شاهدا على عمل الفكرة الإسلامية، ذلك هو الصحابي (بلال بن رباح) - رضي الله عنه - الذي لا يبدو اختياره عفويا، فبلال لم يكن إنسانا فطريا عاديا، كان - بدايةً - (عبدا مملوكا) في أدنى مراتب الإنسانية، ثم انتقل إلى أعلى مراتبها حين مارس - بنجاح كبير - الانتقال من غريزة العبودية للبشر إلى روحانية العبودية لله تعالى، والعبودية الأولى غريزية قطعاً لتعلقها بالرهبة والخضوع وطلب رضا السيد بخدمته نظير ما يقدمه من أسباب البقاء، أما العبودية لله فهي تحررٌ وراحةٌ وخضوعٌ لقانون الروح "الذي كان يحكم بلالا حينما كان تحت سوط العذاب يرفع سبابته ولا يفتر عن تكرار قولته (أحد..أحد)، إذ من الواضح أن هذه القولة لا تمثل صيحة الغريزة"³⁸، والمؤكد أن كل المعاني السامية التي تذوقها (بلال) بعد أن حرره الإيمان من غريزة العبودية للبشر هي ما دفعته ليستهن بالتسلط المادي للآخر، فهو في الظاهر عبد وفي الحقيقة هو أكثر حرية من مالكة الخاضع ل(الوثنية)، وكأني بصيحة (أحد..أحد) المنبعثة من قانون الروح هي من أهلت (بلالا) ليكون أول مؤذن في الإسلام.

وآخر ما تناوله ابن نبي في فصل (الفكرة الدينية) هو الاعتضاد بنظرية التحدي لتويني، فالحضارة تبدأ بتحدٍ ما، وعبر أطوارها تتعرض لمشكلات ولوازم يفرضها التحدي ك(التعاضد) و(الارتباط التعاوني) و(الرد الجماعي المتأزر)، إضافة إلى ما يصحب ذلك مما تستدعيه حاجة القوت الأساسية من (ضرورات) و(غريزة فردية) و(منافسة) و(مزاومة)، وتحكيم بعض القوانين السفلية الحيوانية في ذلك، وكانت خاتمة الفصل اعترافا بقدرة الفكرة الإسلامية على حل تلك المشكلات "هذه المشكلات وجدت لها الفكرة الإسلامية حلها منذ ثلاثة عشر قرنا

حتى تحرك الإنسان السابق على الحضارة والذي بنى الحضارة الإسلامية إلى حيث يسوقه الله³⁹، ويبقى أن نأتي إلى تحليله النفسي لقانون الدورة الحضارية وتلك العلاقة العضوية بين الفكرة الإسلامية ومنقذها على الأرض (الإنسان المسلم) حيث نجده يبدع في شرح تلك العملية (الشرطية = التكييفية) للفرد والتي تحولته من مادة فطرية (خام) إلى (إنسان حضارة)، وهذا ما سنناقشه في المبحث القادم.

3- الفكرة الإسلامية في (شروط النهضة): إثبات الخصائص، واستدراك النقائص.

3-1 اختلاف الفكرة الإسلامية

يرى ابن نبي تشابها بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، حيث: "لا يختلف تطور الحضارة المسيحية عن تطور الحضارة الإسلامية، إذ هما ينطلقان من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص" (مالك بن نبي، 1986أ، ص 50)، ويتسع التشابه إلى الحضارات الأخرى فيقول: "المدنيات الإنسانية حلقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار المدنية الإسلامية والمسيحية.."⁴⁰، ويضيف: "في أفكار (كيسرلنج) ما يمدنا بتخطيط تحليلي للواقعة المسيحية نستطيع أن ندرج في نطاقه الواقعة الإسلامية، وذلك لما فيها من وجوه التماثل والبيولوجية-التاريخية المعينة التي تضع الحضارة في كلتا الواقعتين ضمن حالات تطويرية متشابهة"⁴¹، فابن نبي لا يرى خصوصية للفكرة الإسلامية، ولهذا ركزنا على تخليصها من هذا التداخل مع الفكرة الدينية عموما، لنقول بأن التشابه ليس كاملا، وهناك فوارق مفصلية بينها وبين الأفكار الأخرى، وأستحضر هنا إقرار غوستاف لوبون باختلاف الإسلام عن النصرانية في الأصول العقيدية وأهمها (التوحيد) حيث يرى بأن الإله الواحد في الإسلام "مهيمنٌ على كل شيء، ولا تحفُّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يُفرض تقديسهم، وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أولُ دين أدخل التوحيد إلى العالم.."⁴²، وهذا التمييز العقدي لا بد أن يلقي بظلاله على الفكرة التي ستؤول نموذجا حضاريا متميزا، وفي هذا يقول الدكتور محمد عمارة: "إن الإبداع سيظل غائبا من حياتنا ما لم نتفق على أننا أصحاب نموذج حضاري متميز"⁴³.

والبداية من تذكير أنفسنا ببعض خصائص ل(الفكرة الإسلامية) لا ينكرها ابن نبي، ولا تتوفر لفكرة دينية أخرى وجدت أو تم إعادة إنتاجها بعد الإسلام، والتذكير بها مهم لأنها تؤثر في الرؤية والتكوين الحضاريين، ومن أهم الخصائص أننا نؤمن بمرحلة (ما قبل الفكرة)، حين كانت (إرادة إلهية) محضة، وكانت رحمةً لا شريك لله فيها: {وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك..} (القصص، آية: 86)، رحمة (سماوية) خالصة، وعليه "يجب تناول الحضارة الإسلامية بجانبها العلمي المتعدد والعملي المتنوع ودراستها على أساس من العقيدة الإسلامية.. فهي ترتبط بالله وتستمد من شرعه.."⁴⁴، والفكرة الإسلامية رسالة (عامة) للبشرية لم تختص بشعب خاص، ولها (خاتمتها) التي أغلقت المجال أمام أي وحي لاحق، والخاتمية "ميلاد عهد جديد في التاريخ الإنساني، ميلاد القيم العالمية، والمرجعية الممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودليل على أن الإنسانية بلغت الرشد.."⁴⁵.

ثم إن أصل الفكرة معصوم محفوظ حرفيا بتعهد إلهي، وبالإعجاز فله حمايتان، هو المعجزة، وهو المنهج ذاته لا ينفصل عن المعجزة، فـ"القرآن هو بنفسه الوحي المدعى، وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير.."⁴⁶، والفكرة لها قطعية الثبوت، وهي الوحيدة - وفق ابن نبي - التي حافظت على أصلها حيث "امتاز القرآن الكريم بميزة فريدة هي أنه تنقل منذ أربعة عشر قرنا دون أن يتعرض لأدنى تحريف أو ريب.."⁴⁷، وهذه الخاصية وحدها تجعل الفكرة الإسلامية لا تشبه غيرها بتاتا، فمبادئها ثابتة مع صفاء عقدي، بينما الحضارة المسيحية - وفق توينبي - "علمانية لاحقة بالمسيحية تعيش على بقايا من المبادئ المسيحية المشوهة"⁴⁸، فالمبادئ نفسها مشوهة، والمسيحية ليست مسيحية.

ثم إن حامل الفكرة الأول (النبي) بقيت صفته النبوية محمية لم تنزل أقل من النبوة، ولم ترتفع إلى (التأليه)، فـ"لم يتخذ المسلمون نبيهم إلها ولم يعبدوه في وقت من الأوقات"⁴⁹، وهذا مهم جدا في السيرورة الحضارية، ثم الوحي ملموس واقعي، ومتلو متعبد به يوميا، ووعاؤه لغة متسعة إلى درجة لا تحظى بها فكرة أخرى، وما أشبه اللغة بالوحي، فـ"لم يحدث للغة العربية تطور تدريجي، بل بعض ما يشبه الانفجار الثوري المبالغت، كما كانت الظاهرة القرآنية مبالغتة"⁵⁰، وقوة تلك اللغة (الشعر) جعلت العرب يحسون قبل الإسلام بوحدة الأمة رغم القبلية المتطاحنة⁵¹، وأصل الفكرة له الصلاحية للزمان والمكان، صلاحية خاصة وليست - كما يراها ابن نبي - جوهر لكل دين⁵²، والشريعة المتفرعة عنها لها مرونتها الأبدية ومقاصديها الحضارية، بدليل أنها تجد حلولاً لكل المشكلات كما أثبت ابن نبي نفسه.

3-2 الفرد المسلم والعملية الشرطية

إن كان فصل (الفكرة الدينية) أهم ما في كتاب (شروط النهضة) فإن الجزء المتعلق منه بقانون الحضارة والتحليل النفسي للعملية الشرطية هو أهم ما في الفصل، وأهمية مسلك التحليل النفسي أنه "يكشف لنا عن التأثير المباشر للفكرة الدينية في خصائص الفرد النفسية"⁵³، وهو فاتح آفاق كبيرة على الفعل الجبار للفكرة الإسلامية في نفوس معتنقيها، وعلى تميز عالم الأشخاص فيها وهو ينحو نحو المثالية، بداية من تنزه الفرد المسلم التام عن الذاتية، وتقديمه إرضاء الله تعالى على إرضاء ذاته، يقول عبد الرحمن بدوي: "الروح الإسلامية تُفني الذات في كلِّ ليست الذوات المختلفة أجزاء تكونه، بل هو يعلو على الذوات كلها، وليست الذوات إلا من آثاره ومن خلقه.. فالروح الإسلامية تنكر الذاتية إذا أشد الإنكار"⁵⁴، ويرى اشبنغلر "أن فكرة الأمة تقوم عند الأمة العربية على أساس من الروابط الروحية المجردة، ولذلك فإن الأمة العربية تريد من زعيمها أن يتمتع بصفات النبي ومؤهلاته.."⁵⁵، بينما يقول لوبون: "وجمع محمد قبل وفاته كلمة العرب، وخلق منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك أيته الكبرى.. فما سر هذا الدين الذي خضع لحكمه ملايين من الناس؟"⁵⁶، ويرى اشبنغلر كل انطلاقات الحضارات مجتمعة "تعاود في زخمها انطلاقة واحدة حملت العرب إلى إسبانيا وفرنسا وإلى الهند وتركستان.. لقد ضغطت في هذه السنوات القلائل جميع العواطف العربية المدخرة والآمال المؤجلة والأعمال المحفوظة، هذه التي تكفي لتملأ قرونا وقرونا من التاريخ"⁵⁷، فما الذي جعل انطلاقة الفكرة الإسلامية بهذا التوثب والاندفاع؟

إن السر - وفق ابن نبي - يكمن في تلك (العملية الشرطية) التي خضدت شوكة الغريزة فجعلتها تفسح مكانا للتغير الثقافي، ويشبه هذا جزم فرويد بأن "التسامي بالغرائز من أكثر ما يميز عملية الارتقاء الثقافي..[إلى أن يقول].. المشكلة الآن هي أن نزح أكبر عقبة في طريق الحضارة وهي هذا الميل الفطري.."⁵⁸، ثم إن الفكرة الإسلامية فاعلة من أول يوم نشأت فيه، لا فرق بين لحظة ولادتها وبين لحظة تسجيلها في النفوس في حين أن الفكرة المسيحية احتاجت أكثر من ألف عام لتسجل في النفس الأوروبية⁵⁹، وهذا الفرق يجعل الفكرة المسيحية لم تقم بأي (عملية شرطية) وهي تسجل في النفوس بعد ألف عام، ربما كانت لها عمليتها الشرطية مع السيد المسيح والحواريين وابتداع الرهبنة، ولكن ماذا عن انطلاقة الحضارة المسيحية بعد ذلك بألف عام؟ هل قامت بنفس العملية الشرطية؟ وفي السيرة النبوية (عبارة عظيمة) قل من تنبّه إليها، وهي جواب العباس لأبي سفيان حين ذهل الأخير من استعراض القبائل وهي تتجه إلى فتح مكة فقال: "لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما.. قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة.."⁶⁰، إنه فعل النبوة الموفق بإذن الله في محو العصبية، وبناء الصلة الوثقى بين عالم الأشخاص، وهو فعل نبوي تعجز عنه كل أسباب الحضارة الأرضية، وابن نبي يستشهد على تلك الصلة بقوله: "القرآن يعطينا فكرة عن قيمة هذه الصلة حين وجه خطابه إلى النبي قائلا: {لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم}.."⁶¹، كان التأخي معجزة، وحين يقارن تحريم الإسلام الخمر بتحريم أمريكا له يقول: "استؤصلت فكرة التحريم نهائيا من عالم الثقافة في المجتمع الأمريكي لأنه لم يكن لها جذور في

العالم"⁶²، ولم يحتج تحريم الخمر زمن النبوة أكثر من (آية) غابت بعدها الخمر فجأة عن المجتمع رغم التعلق الشديد بها، ومع أن القرآن يثبت عجز الأسباب الأرضية كلها عن التغيير لولا الإرادة الإلهية إلا أننا ما زلنا نستفهم ابن نبي عن رؤيته الأفكار الدينية الأخرى مشابهة للفكرة الإسلامية، ولقد أسال حبرا معتبرا حول التفسير النظري لدور الفكرة الدينية وختم بقوله: "وإذا نحن حاولنا بعد الذي سردنا من النظريات أن نستعمل إحداها في تفسير لواقعة تاريخية محددة - ولتكن الحضارة الإسلامية على سبيل المثال - فإننا نجد أنها لا ترضينا تمام الرضا"⁶³، ولم يقل: لماذا؟ ولم اضطر إلى جعل الفكرة الإسلامية مرة تحت طائلة تفسير (كيسرلنج) ومرة تحت تفسير (توينبي)؟ لقد تبين أنه يرى الفكرة الإسلامية شبيهة جدا بأي فكرة دينية أخرى.

3-3 عودة التزكية: عودة الحضارة

لقد كان بإمكان ابن نبي أن يفتح (فتحا هائلا) بنسبته (العملية الشرطية) إلى أصلها (التزكية) روح الإسلام وباعثه معجزاته البشرية، فليس للعملية الشرطية التي ذكر من تفسير غير ذلك، وليس لها من وجود حقيقي إلا في التزكية النبوية للصحابة بدءًا بالعمل السري الذي كان في (دار الأرقم) حيث تمت التربية وإعادة تكوين شخصيات الصحابة بين عمليتي (التخليّة) عن الجاهلية، و(التحلية) بالأخلاق النبوية، وأعتقد أن ذلك ما كان ينقص ابن نبي ليكون عمله الضخم عن (مشكلات الحضارة) قد استوفى كل حيثياته وشروط إقلاعه بالأمة، وإنني حين أتساءل عن بقاء فكرة النهضة نظرية لا أجد تفسيراً إلا عدم ترجمة (العملية الشرطية) من مصطلح (فرويد) إلى مصطلح قرآني هو (التزكية)، وإلا ولو فعل ابن نبي ذلك لأبان المنهج، واستكمل التحليل، ولأضاف إلى منطلق الفكرة حرارة الروح، فكل البراهين تقول بأن تطبيق قانون الدورة الحضارية من جديد يحتم علينا الاعتراف بأننا في مرحلة غريزة غالبية ولكنها لم تقتل الروح، ويكون أول الخروج منها الدخول في (مرحلة الروح): مرحلة الميлад الجديد، وهي مرحلة تتجلى فيها (العملية الشرطية) بكل حيثياتها.

ويؤكد هذا تفريق ابن نبي بين الفكرة وبين التمثيل القيمي الاجتماعي لها، ولا حضارة إلا بذلك التمثيل، وعنده "أن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة... [فهو].. لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً مجرداً"⁶⁴، وهنا تفريق كبير بين التفاعل مع الفكرة الذي يؤدي إلى الفعل، وبين التفاعل معها المؤدي إلى مجرد الثثرة والدعوى، وفي نقد فعالية الفكرة يقول: "الأفكار التي أثبتت فعاليتها في بناء الحضارة الإسلامية منذ ألف عام تبدو اليوم عديمة الفعالية، لقد فقدت التصاقها بالواقع"⁶⁵، ويقول عن المسلم (المتفسخ): "عقيدته تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جذبية فردية.."⁶⁶، والسؤال الأكبر هنا: ما الحل لتعيد الفكرة (الباقية) بناء الواقع الاجتماعي؟ يجب ابن نبي: "إن تكوين الحضارة كظاهرة اجتماعية إنما يكون في نفس الظروف والشروط التي ولدت فيها الحضارة الأولى"⁶⁷، وهذا يعني أن الشرط المتبقي لعودة الحضارة هو الإنسان، فالفكرة متوفرة، والتراب والوقت متوفران، ولكن الإنسان هو من انقطعت صلته بالفكرة، أو الفكرة انقطع اتصالها بالمجتمع ليعيش جاهلية سلوكية، والخروج منها كالخروج من الجاهلية الأولى، لن يكون بمجرد اصطلاحات ك(النهضة) و(الصحوة) و(الإصلاح) و(الفكر) وما شابه، بل بما يشبه النبوة، بتفعيل وظائف النبوة الثلاث كلها، ووظائفها محددة في القرآن: {يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم} (آل عمران، 164)، والتلاوة والتعليم متوفران ولكن يلاحظ غياب وظيفة التزكية، وإن تم استحضارها فستكون تجليات النبوة كاملة، وسنخرج من الجاهلية كما خرج أسلافنا، وإن (التزكية) لتضطرم في القلب عاطفةً إن كان (التعليم) و(التلاوة) يعملان في العقل، والاقتصار على مخزون فكر مجرد لا تواكبه عاطفة سير أعرج، فعقل المسلم متوقد، ولكن عاطفته خامدة.

إن الذي ييسر حسن السلوك ويدفع إلى النهوض ليس مجرد الفكرة، وإنما ينبغي أن توافيها العاطفة، ففكرة الأمومة وحدها - مثلا - لا تكفي لتسهر الأم لأجل طفل ليس طفلها، ولا يعقل أن يُطلب منها السهر من أجل طفل آخر بحجة أنها تعرف معنى الأمومة، لن تستطيع - ولو حملت فكرة الأمومة - أن تسهر لأجل ولد ليس ولدها، فالرباط العاطفي غير متوفر أو ضعيف جدا، وفي التنزيل: {وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين} (البقرة، 45)، إن فكرة الصلاة موجودة، ولكنها ثقيلة على غير الخاشع، والخشوع عاطفة، فمحرك العمل هو القلب أيضا لا الفكر وحده، وحين لا يقتربان فإن المسلم سينهار سلوكيا وحضاريا وقيميا، ودور الدين الاجتماعي منحصر في أنه يقوم ب(تركيب) يهدف إلى تشكيل قيم⁶⁸.

وحيث نلمح في السُّنة اسما آخر للتركيز هو مقام (الإحسان) فوق مقامي: الإسلام والإيمان، ونجد اسم التفضيل: (أحسن) مطلوباً في القرآن تعاملاً وعبادة وإتقاناً، وحين نعلم أن الحضارة ليست إلا (تحسيناً) لمعاني ومعالم ووسائل الحياة سنعلم أن تفعيل مقام الإحسان، مقام (المراقبة)، مقام: (أن تعبد الله كأنك تراه) كان الشرارة العظمى التي أطلقتها النبوة للحضارة العظيمة ببُعْدِها القيمي والشيئي، وكان (كلمة السر) في (الفكرة الإسلامية)، وكأني بـ(الإحسان=الحضارة)، وحين حررت التركيزية المؤمن من قيود (الغريزة) فعَلَّ الفكرة سلوكاً واعتقاداً لينتج المنظومة القيمية التي وصلت الفكرة بواقعها الاجتماعي فأنتجت الحضارة (الاستثنائية)، وأنتجت (المقاومة) التي أكبرها ابن نبي في الشعب الجزائري الذي اهتم بالوثنية في قوله: "وهكذا شأن الجزائر فإنها كانت حتى عام 1925 - على الرغم من إسلامها - تدين بالوثنية⁶⁹، اتهامٌ نتيجة خلفية (إصلاحية) حادة، ولا أدري إن كان تراجع عن هذا في قوله: "المجتمع لم يفقد الإيمان حتى في عصور الانحطاط⁷⁰، وكان لابن نبي أن يتجنب لفظ (التصوف) ويسميه بمصطلحه المأثور، فهو في تحليله للعملية الشرطية لا يخرج عن وظيفة (التركيزية) بينما يريد إقناعنا بأن (عملية شرطية) كعمل النبوة العظيم في (التركيزية) قد تكررت وتكرر جيل الصحابة مع انطلاقة كل حضارة، وهو يعرف الصحابة أكثر مما يعرفهم (أشبينغر) و(كيسرلنج)، ويعلم أنهم لم يتخلصوا - فجأة - من رعونات الجاهلية، وأنهم خضعوا ل(مجاهدات) التربية النبوية حتى استقاموا، وأن تلك التربية التكوينية المهدبة للغرائز لم تحصل في انطلاقة أي حضارة إلا في انطلاقة حضارة الإسلام، وكذلك أثر الفكرة الإسلامية الروحي مختلف، فهو باق أبداً في ردة فعل الأمة تجاه التحديات، باقٍ رغم ما أصابه من غبش وضبابية وسعار غريزي، ولو أنسقنا وراء العاطفة لقلنا بأن الحضارة الإسلامية معفاة من (الأفول) والسيطرة الكاملة للغريزة، وأنها تتراوح دوماً بين مرحلة العقل ومرحلة (الروح) نظراً لوجود شعلة (المقاومة) في كل أطوارها، والمقاومة من الروح لا من الغريزة يقينا، هكذا نطق تاريخ الفكرة الإسلامية وتاريخ حضارتها، فكيف تكون الفكرة الإسلامية كغيرها؟

خاتمة:

في ختام هذه الجولة (الموجزة) يليق بنا الاعتراف بالخطوة العملاقة التي خطاها ابن نبي في شروط النهضة أثناء تحليله (العملية الشرطية) التي هي بداية انتقال الإنسان من زمن ما قبل الحضارة إلى زمن الحضارة، وقمنا بالبرهنة على تلك الفرضية التي عرضناها أول البحث، ووصلنا إلى حتمية تفرد الفكرة الإسلامية وخصوصيتها، ورأينا ابن نبي - في شروط النهضة على الأقل - وفي تحليله للعملية الشرطية لا يرى خصوصية للفكرة الإسلامية أو اختلافاً لها عن أي فكرة دينية أخرى رغم أنه جعل الفكرة الإسلامية وفرداًها: (بال) نموذجاً للبرهنة على (العملية التكوينية) التي تقوم بها الفكرة الدينية، ولاحظنا اقتصره على المصطلح الفرويدي في شرحه العملية التكوينية الشرطية دون ترجمتها إلى مصطلحها الإسلامي (التركيزية)، ووصلنا إلى نتيجة مهمة ربطت بين (الإحسان) مصطلحاً نبوياً وبين (الحضارة) بحكم العلاقة بين روح التركيزية وروح الفكرة، وبحكم المشترك (الجمالي) بينهما، فالتركيزية (الإحسان) قائمة على ترقية علاقة الفرد بالخالق لينعكس ذلك على علاقته بالمخلوق، ومن هنا بدأت حضارة الإسلام وتميز بعدها الجمالي واختلفت فكرتها.

ولنا في الختام التماس بإيلاء فصل (الفكرة الدينية) من (شروط النهضة) أهمية أكثر غير استكتابات وندوات، ومن خلال ذلك الاهتمام أكثر بإثبات تميز الفكرة الإسلامية وحضارتها، فإن ما كتبناه عن ذلك مجرد شذرات بما سمحت به مساحة البحث، ثم يرجى التعاون لرفع الحيف الذي جنت به المصطلحات اللاحقة للتزكية على مصطلحاتها الأصلية، فكم حجب المصطلح المستحدث من كنوز، ثم إن الربط بين علم التزكية وفلسفة الحضارة ليعتبر وثاماً منشوداً بين العقل والروح، وقانون الروح الذي حرر (بلالا) ما زال يمكن تكراره لتتحرر الأمة من عبوديتها النفسية للآخر كما تحرر بلال، فحرية الروح سابقة لحرية الجسد، وحين وقع الربط بين التزكية وبين مجاهدة الاحتلال نتج لنا (مشروع المقاومة) الذي منعت التزكية من اختراقه، آملي أن يصبح الاحتلال حدثاً من الماضي مع تخلص الأمة من سلطان غرائزها بسلطان وروح التزكية والفكرة الإسلامية واهبة الفعالية لـ(شروط النهضة).

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- 1- أسوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة: أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون عدد الطبعة، 1964.
- 2- عبد الرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة، القاهرة، ط2، 1964.
- 3- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، (و) منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1968.
- 4- أنور الجندى، الحضارة في مفهوم الإسلام، دار الأنصار، القاهرة، دون عدد الطبعة، 1979.
- 5- عبد الرحمن علي الحجي، جوانب من الحضارة الإسلامية، مكتبة الصحو، الكويت، ط1، 1979.
- 6- بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أنموذج مالك بن نبي، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، عدد73، ط1، 1420هـ.
- 7- محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، القاهرة، دار الفرقان، دون عدد الطبعة، ودون سنة الطبع.
- 8- عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل في المصطلحات الفلسفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000.
- 9- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بتحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط7، 2014.
- 10- مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006.
- 11- محمد عمارة، معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، دون عدد الطبعة، ودون سنة الطبع.
- 12- سيغموند فرويد، الحب والحرب والحضارة والموت، ترجمة: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1992.
- 13- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتير، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (دون عدد الطبعة)، 2013.
- 14- حسين مؤنس، الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1987.
- 15- مالك بن نبي، شروط النهضة، (دون عدد الطبعة)، دمشق، دار الفكر، 1986.
- 16- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دمشق، دار الفكر، دمشق، ط4، 1987.
- 17- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1988.
- 18- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط4، 1984.
- 19- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1986.
- 20- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون طبعة وسنة الطبع.

قائمة الهوامش

- ¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، (دون عدد الطبعة). دمشق، دار الفكر، 1986، ص 91.
- ² عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل في المصطلحات الفلسفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 3، 2000، ص 183
- ³ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1988، ص 31.
- ⁴ شروط النهضة، ص 47
- ⁵ نفسه، ص 46
- ⁶ نفسه، ص 71
- ⁷ شروط النهضة، ص 72.
- ⁸ شروط النهضة، ص 69.
- ⁹ نفسه، ص 72.
- ¹⁰ نفسه، ص 61.
- ¹¹ نفسه، ص 61.
- ¹² نفسه، ص 62.
- ¹³ نفسه، ص 62.
- ¹⁴ نفسه، ص 71.
- ¹⁵ محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، القاهرة، دار الفرقان، دون عدد الطبعة، ودون سنة الطبع، ص 6.
- ¹⁶ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 42.
- ¹⁷ شروط النهضة، ص 71.
- ¹⁸ شروط النهضة، ص 14.
- ¹⁹ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 39.
- ²⁰ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دمشق، دار الفكر، دمشق، ط 4، 1987، ص 87.
- ²¹ شروط النهضة، ص 55.
- ²² الظاهرة القرآنية، ص 155.
- ²³ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 24.
- ²⁴ شروط النهضة، ص 66.
- ²⁵ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 85.
- ²⁶ شروط النهضة، ص 67.
- ²⁷ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط 4، 1984، ص 51.
- ²⁸ شروط النهضة، ص 70.
- ²⁹ حسين مؤنس، الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1987، ص 50.
- ³⁰ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 18.
- ³¹ نفسه، ص 40
- ³² مشكلة الثقافة، ص 63 .
- ³³ شروط النهضة، ص 66.
- ³⁴ نفسه، ص 52.
- ³⁵ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1986، ص 31.
- ³⁶ نفسه، ص 29.
- ³⁷ نفسه، ص 30.

- 38 شروط النهضة، ص 67.
- 39 وجهة العالم الإسلامي، ص 72.
- 40 شروط النهضة، ص 53.
- 41 نفسه، ص 65.
- 42 غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (دون عدد الطبعة)، 2013، ص 131.
- 43 محمد عمارة، معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، مكتبة نضضة مصر، القاهرة، دون عدد الطبعة، ودون سنة الطبع، ص 20.
- 44 عبد الرحمن علي الحجي، جوانب من الحضارة الإسلامية، مكتبة الصحوة، الكويت، ط 1، 1979، ص 8.
- 45 بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أنموذج مالك بن نبي، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، عدد 73، ط 1، 1420هـ، ص 83.
- 46 عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بتحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نضضة مصر، القاهرة، ط 7، 2014، ص 410.
- 47 الظاهرة القرآنية، ص 103.
- 48 أنور الجندي، الحضارة في مفهوم الإسلام، دار الأنصار، القاهرة، دون عدد الطبعة، 1979، ص 12.
- 49 مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 2006، ج 4، ص 148.
- 50 مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 191.
- 51 كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، (و) منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1968، ص 29.
- 52 شروط النهضة، ص 58.
- 53 شروط النهضة، ص 13.
- 54 عبد الرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة، القاهرة، ط 2، 1964، ص (و).
- 55 أسوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة: أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون عدد الطبعة، 1964، ص 21.
- 56 غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص 119.
- 57 تدهور الحضارة الغربية، ص 23.
- 58 سيغ蒙德 فرويد، الحب والحرب والحضارة والموت، ترجمة: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، ط 1، 1992، ص 63.
- 59 شروط النهضة، ص 55.
- 60 عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون طبعة وسنة الطبع، ص 47.
- 61 مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 63.
- 62 نفسه، ص 47.
- 63 شروط النهضة، ص 65.
- 64 مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 125.
- 65 مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 159.
- 66 وجهة العالم الإسلامي، ص 54.
- 67 شروط النهضة، ص 25.
- 68 وجهة العالم الإسلامي، ص 32.
- 69 شروط النهضة، ص 32.
- 70 وجهة العالم الإسلامي، ص 32.